حرقة الكتابة عند الدكتور عباس الجراري

الباحثة الدكتورة الأستاذة: فاطمة أمجدرو
المغرب

المباحث:

1. الجمع بين الأصالة والانفتاح.
2. سلاسة العبارة في نقل التصور.
3. اهتمامه بالمتلقي.
4. فعالية التجربة "الجراري".

تلخيص:

إن الدكتور عباس الجراري يسكنه هاجس البحث عن المقاربات الجديدة، وكل ذلك يتم وفق تناول جديد للأدب، يتخطى "الأدبية" ويؤسس منظورية جديدة، قائمة على المخزون الرمزي والثقافي، الذي يمرره الأدب عبر مسالك التخييل ومنعرجاته.

هذا، ويعمل أستاذنا على إبراز مضمرات الخطاب الأدبي متوسلا بجاز نقدي قمين بتحقيق الهدف، وقد تجاوز منجزات ما بعد الحداثة، كما عند بارث وكريستفا ودريدا وميشيل.....حيث لم يعد اهتمامه بالجمالي النصوصي، وإنما بنسق هذه النصوص وبناها الذهنية.

Abstract:

Dr. Abbas Al-Jarari is obsessed with the search for new approaches. All of this is done according to a new approach to literature that goes beyond "literary" and establishes a new perspective, based on the symbolic and cultural stock, which literature passes through the paths of imagination and its twists and turns. Our professor works to highlight the implications of literary discourse, using a critical method that is capable of achieving the goal, going beyond the achievements of postmodernism, such as Barth, Kristeva, Derrida and Michel. ...., where he is no longer concerned with textual aesthetics, but rather with the texts' formats and mental structures.

تقديم:

إن مشروع الدكتور عباس الجراري النقدي سيكون منطلقه المعرفي هو بداية التخلص من أحكام الاستشراق الجاهزة، ومن سطوة التراثية لصالح رؤية منفتحة للمناهج خارج نزعة القداسة ووهم الأصالة المطلقة. وفي هذا الإطار يرى أستاذنا أن عوامل الاتصال مع أوربا لم تكن من القوة والعمق لتيسر أسباب الاقتباس والتأثير مما جعلها مرتبطة بحركة الشرق العربي وملتحمة معها في الاتجاه والمصير.

إن الدكتور عباس الجراري يسكنه هاجس البحث عن المقاربات الجديدة، وكل ذلك يتم وفق تناول جديد للأدب، يتخطى "الأدبية" ويؤسس منظورية جديدة، قائمة على المخزون الرمزي والثقافي، الذي يمرره الأدب عبر مسالك التخييل ومنعرجاته.

هذا، ويعمل أستاذنا على إبراز مضمرات الخطاب الأدبي متوسلا بجاز نقدي قمين بتحقيق الهدف، وقد تجاوز منجزات ما بعد الحداثة، كما عند بارث وكريستفا ودريدا وميشيل.....حيث لم يعد اهتمامه بالجمالي النصوصي، وإنما بنسق هذه النصوص وبناها الذهنية.

1-الجمع بين الأصالة والانفتاح :

بلغت النهضة الشرقية أوجها، ولاسيما في الإنتاج الأدبي والفكري، حيث كانت أصداؤها تصل إلى المغرب سرية، وعلنية، فتنقلها الأيدي بلهفة. يقول أستاذنا في المقدمة التي صدر بها كتاب الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية»، للدكتور ابراهيم السلامي: (إنه لو حاولنا النظر في حالة الشعر قبل عقد الحماية، وحتى أوائلها، لوجدناه امتدادا للقديم في محاولة عند المجيدين لمحاكاة بعض أعلام الشعر العربي والأندلسي منه على الخصوص. ولم يكن اتجاه المغاربة للاحتذاء بالنموذج المشرقي تعبيرا عن تخلفهم الفكري والثقافي، وبالتالي عن الحاجة الماسة إلى الاستعارة والاقتباس. فالواقع الفكري والحقائق التاريخية للمغرب والمشرق، تفند هذا الزعم. فهذا البلد عجز كثير من الأسر المالكة بالمشرق على ضمه لخلافته العربية والإسلامية، كما هو الحال بالنسبة للعباسيين. وقد استقبل المغرب حركات خارجة عن الحكم المركزي، استطاعت أن تكون لنفسها نفوذا قويا، فاقت به في كثير من الأحيان النفوذ المشرقي، كالخوارج، والفاطميين على سبيل المثال، بل تم الاستنجاد بالمغرب لإغاثة الأندلس على عهد الدولة الموحدية والمرابطية، ولم يتم مساوقة المشارقة، ومحاكاتهم، إلا من قبيل الدعوة لاكتساب المشروعية من أكبر الشرائح الشعبية نحو التجديد، لما أحس رواد الإصلاح بأسر المحافظة والتقليد تعرقل مسيرتهم. وفي هذا الصدد، يقول عبد الجليل ناظم فيما يتصل بدعوة الإصلاح في النقد والأدب: «...كان نقد الشعر التقليدي يستلزم تبني دعوة الإصلاح، لاكتساب المشروعية التي يوفرها الوضع الثقافي. .. ولكن إصلاح وضع الشعر يستلزم حرية في نقد الأوضاع العامة، في حين أحس الناقد بضغوط اجتماعية لا تقبل هذا النقد[1].

وإذا تصفحنا حصاد هذه الفترة فسنجده متنوعا وغنيا .

- ففي مجال النثر: نمت المقالة السياسية والاجتماعية، والأدبية، وظهرت البحوث المختلفة، سواء في الفلسفة أو في النقد أو في الفن. وازدهرت الخطابة السياسية، وظهرت المبادرات الأولى في مجال القصة والمسرحية، زد على ذلك نشاط حركة التأليف في شتى الموضوعات السياسية والتاريخية والعلمية .

- أما في مجال الشعر، فقد استفحلت حركته بالنظر إلى الموضوعات الوطنية، حيث تضمن دعوة صريحة ضد الاستعمار وتذكير الشعب بمجده التليد وتاريخه العريق، فتحول الشعر العاطفي من تفاهة العبارات إلى التجاوب مع معاناة الذاتية والإنسانية الصادقة، وظهر الشعر التمثيلي والملحمي. وانقسم شعر هذه المرحلة إلى عدد من الموضوعات الأساسية، التي تصب في منبع الشعر الإصلاحي والوطني، المتمثل في: الوحدة الوطنية الدعوة إلى الجهاد الدعوة إلى الدين الصحيح، شعر القضايا المتصلة بالعروبة والإسلام التعاطف مع الحركات الوطنية السياسية. وينم الشعر هذا عن الوعي السياسي، وهذا دفع الشعراء إلى تنويع طرائق التعبير للتحريض على النضال ذودا عن حمى الوطن والشعب .

- كما لم يبق الشعر المغربي في هذه الفترة مكتفيا بأغراض القدماء من جهة المعنى، بل اهتم كذلك بالأغراض الحديثة وخفف من ثقل القوالب الموروثة من غير أن يثور على الأوضاع التقليدية للشعر العربي، وهو بذلك يتجاوز خط الشعر في

المشرق العربي، الذي كان ما يزال محافظا على العمود الشعري، وإن وصل غاية التطور والازدهار[2].

وقد دفع الجهل بأدب المغرب والمغاربة الأستاذ عبد الله كنون إلى تأليف كتابه: "النبوغ" [3]، حتى يتضح للكل حجم إسهامات المغرب والمغاربة، في بناء صرح الأدب العربي والثقافة الإسلامية ردا على فراغ تصانيفهم الأدبية، وتحقيباتهم الثقافية من ذكر مزية لهم[4]

وحفز هذا العمل على ظهور أعمال أخرى عديدة غيورة على الثقافة المغربية تنحو نفس المنحى، منها على سبيل المثال: كتاب (دفاعا الثقافة المغربية) لمحمد السايح وكتاب (الأدب العربي المعاصر في المغرب الأقصى» لسيد حامد النساج وغيرها كثير. وفيما بعد الاستقلال انبثقت عصبة جديدة خرجت عن الأذواق الفنية السائدة وتعدتها إلى الدعوة الصريحة لتغيير المنهل في اتجاه الأخذ عن الغرب ومجاراته. واحتكاك المغرب مع الغرب كان سبب النهضة المعاصرة، نظرا لاحتكار الثقافة والتقنية من طرف الغرب. وقد خلف الإحتكاك بالغرب سواء نتيجة الاستعمار (المثاقفة المفروضة)، أو الاتصال المباشر عن طريق الترجمة والهجرة (المثاقفة الحرة)، نشاطا عارما أسفر عن البعد الإنساني للانفتاح، وبالتالي تيقظ الذات في تملك المصير الشخصي، مما دفع الجميع إلى دعم الذات وإغناء مقوماتها، سواء عن طريق التحقيق والإخراج أو بواسطة الاقتباس والاستعارة .

فهل الارتباط بالشرق قبل الغرب بلور فعلا عمليات التحول، أم بالعكس عمل على تعطيلها؟ وهل هذا التحول عن الشرق لصالح الغرب نتج عنه بالفعل تغيير اجتماعي ووظيفي في التصورات والنظر إلى الاشكالات والماهيات؟ وإلى أي حد ساهم الانفتاح على الغرب في تقليص الهوة الشاسعة بيننا وبينه؟[5]. تلك كانت وسيلة إجرائية لصياغة مفهوم مغاير للأدب .

إن السؤال الذي لا يقبل التأجيل بهذا الصدد هو: إذا كانت الاستفادة من التجارب النقدية الأوربية أمرا لا محيد عنه، فلماذا يتم حصر مجال هذا الانفتاح في مفاهيم تم هجرها وتجاوزها من طرف الأوربيين أنفسهم، بعدما استنفذت طاقة بقائها وحضورها، وبعد أن فسحت المجال لطرق نظريات فرضتها دواعي التطور الذي حاق بمختلف العلوم الإنسانية؟

لقد تم انتقال العناصر الفكرية والمواد المنهجية، إلى ما يشكل المؤسسة الأدبية والفكرية، وتعمق الوعي تدريجيا بضرورة التفتح وخلق أشكال فنية ومنهجية حية، تمثل المغرب والمغاربة في حياتهم الواقعية، وشعورهم الوجداني أحسن تمثيل. فإذا كان الحداثيون العرب منذ أوائل السبعينات مباشرة، أي في السنوات التي تلت النكسة وسقوط الحلم العربي، حاولوا صياغة حداثة نهضوية . بعد أن فقد الماضي شرعيته التاريخية في عالم توحده الرأسمالية الغربية بالقوة، ويهيمن عليه الغرب – كمحاولة للبحث عن الشرعية والتخلص من خطر الإبادة، وإيقاف تدمير الذات، وإنقاذ اللغة. .. فإن الباحثين المغاربة بدورهم حاولوا إعادة صياغة واقع الحضارة المغربية، وفق الخصوصية التاريخية المرتبطة بواقع الثقافة المغربية، ونخص بالذكر عميد الأدب المغربي د. عباس الجراري، الذي ساهم بشكل واضح في تأسيس شرعية للمستقبل المغربي، انطلاقا من إثبات وجوده الحضاري والثقافي .

وإلى غاية مفتتح الثمانينيات كان المغرب قد بدأ يقطع مراحل عديدة في خريطة النقد العربي، واستطاع من ثم أن يطرح أسئلة جديدة ورؤى مغايرة، ويمتح من مناهج جديدة،

مما سيدعم مفاهيم النقد المغربي، وبالتالي سيبرز نقاد أمثال: الدكتور محمد مفتاح، والدكتور ادريس بلمليح، وعبد الفتاح كيليطو، ونجيب العوفي، وعبد الحميد عقار، وسعيد يقطين. ..هذا، وتبقى غنى التجربة (الجرارية) في البؤرة، لكونها ظلت أبدا مفتوحة على مختلف التجارب والطرق التحليلية التي تغنيها كل مرة بزرعها لروح حياة جديدة في مفاصل وجودها الإبداعي، وتلك نبرة وثوقية تغلف هذا الموقف النقدي، في

سبيل الإمساك ببواعث وشروط سر المواقف الثاوية بين طيات التوجه (الجراري». إنها تجربة كبرى وطموح مشروع لا يملك أي أحد إلا أن يثمنه .

وأهم علامة مائزة لهذا الخطاب، تتمثل في تركيزه على «الذات» التي تفسح المجال لجملة نقط من البحث والمساءلة .

- 2سلاسة العبارة في نقل التصور:

لا شك أننا أمام خطاب نقدي له من المشروعية والإجرائية ما يجعله حيا فاعلا كفيلا بتحقيق أهدافه المتمثلة في قراءة النص الأدبي وتأويله، ضمن مشروع محدد محكوم بتصور دقيق، يضطلع بمسؤولية قراءة وبناء الخطاب النقدي بالمغرب. ذلكم هو مشروع أستاذنا.د. عباس الجراري، الذي انطلقت أسئلته من هموم تتصل بالإسهام في إنتاج معرفة تسعف على بلورة هوية الثقافة ومتخيل المجتمع المغربيين. وأسئلته تتقصد استخلاص مفاهيم نظرية للشكل الأدبي المغربي ولمقاييس تلقيه الجمالي، وتقييم هذه الانجازات وتأويلها .

وهكذا، ينطلق أستاذنا من الماضي المتحقق، حتى إذا ما تم «التأصيل، بدأ مرحلة المواجهة والتأسيس)، مع التزود بمبدأ الانفتاح قصد تملك الحاضر بهدف إنتاج المستقبل، وتلك هي الحلقة التاريخية المفقودة .

فكيف تم بناء هذه الحلقة على صعيد الحياة النقدية والأدبية؟.

إن الهم المعرفي الذي يؤسس لهذا المشروع، يتمثل في كون التراكم الحاصل في الإنتاج الأدبي المغربي، يؤشر على ما تعرفه المكونات الأدبية لهذا الانتاج من تحولات إيجابية، تسعى نحو تجسيد خصوصية الخطاب النقدي، وفق التناول الموضوعي والعلمي، وفي إطار بلورة وجهة نظر نقدية فعالة إزاء الذات / العالم .

إن مشروع أستاذنا يمكن تعيين خطوطه العامة في النقط التالية، يتعلق الأمر بإعادة إنشاء خطاب جديد، ومتجدر في الأصول الثقافية المغربية، وبالعثور على الكلام الأبكم الهامس، الذي لا يتوقف، والذي يحرك من الداخل الصوت الذي نسمعه، يتعلق باستعادة النص الرفيع اللامنظور الذي يسري مابين السطور المكتوبة، ويسعى إلى البحث عن المعنى الحقيقي وراء المعنى المجازي .

هذا، ونحسب أن أستاذنا، يحاول جاهداً الاقتراب من أسئلة النقد، وأسئلة تهم بالأساس، الأدب المغربي، وطرائق قراءته وإقامة حوار معه متوخيا الوضوح والابتعاد عن اكتظاظ المصطلحات. ومن ثم نكتشف معه كون إعادة قراءة الأثر الفني المغربي، لا تنفصل عن تمحيص مكونات الخطاب النقدي المغربي وامتداداته في المشهد الثقافي، بوصفه وسيلة جريئة لتقريب عصارة المعرفة للأذهان، في قالب فصيح واضح للعيان؛ بخلاف الذين يغرقون في اللغة المتباهية بتلويناتها المعقدة المركبة، والملوحة بالمصطلحات المحيرة الغامضة المستعصية حتى على أذهان المثقفين. وهنا تتجلى قدرة أستاذنا على صياغة اللغة الحية المتجددة، التي زاوجت بين البساطة والعمق، وبين يسر التوصيل ورصانة وجمال التعبير، متخلصة تماما من عيوب اللغة النقدية المتعالية المصنوعة والمغرقة في الغموض والتقعر .

وهو بهذا المعنى يقاوم ثقافة التسطيح التي تمارس التعسف على الإبداع وتحتمي وراء اللغة الجامدة .

إن المضمون المعرفي الذي يثوي وراء هدف هؤلاء المتصنعين، يقوم على أرضية من الخلط وتشويه الحقائق، بهدف إحداث بلبلة معرفية في الذهن، مما يشل حركية الإبداع، فتتعرض لظاهرة البتر والابتسار، مما يؤدي إلى تحريف الأثر الفني، بشكل الأخلاق العلمية وهذا يتنافى مع الروح الأدبية، ومظاهر الإدراك الجمالي يتنافى مع والذوق الفني .

والتاريخ يشهد على محاولة اغتيال الاسهامات الإبداعية كهذه، التي تواري خلفية نمذجة فنية غير بريئة تقتل الإبداع، لكي تعيش التواريخ المنكسرة، والأسماء الهزيلة، التي تسعى إلى الإنتشاء بمتون شجرات الكلام، وتعليبه في قوالب قيمية معيارية .

إن هذا التوجه يسعى إلى إنزال النص الأدبي من سماء الآلهة والشياطين إلى أرض واقعه المدرك الذي ينسف الغاية القصوى التي صيغ من أجلها.

ومن ثم يمكن القول إن أشكال المعرفة والتفكير لها طابع كوني، فهدف كل معرفة جديدة، هو التعرف على أسرار الكون والسيطرة عليه .

إن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن في هذا الإطار، هل يمكن أن نتصور حضور أو وجود الأدب المغربي بدون حضور الدكتور عباس الجراري؟ – وقد سبق للدكتور ادريس بلمليح أن طرح هذا السؤال من قبل –هنا تكمن الإجابة، ما كان لنقادنا المحدثين الوصول إلى ما وصلوا إليه الآن من معالجة إرثنا الحضاري المغربي في كل مجالاته، بمناهج شرقية أو غربية أو غيرها، بدون أرضية. .. بدون هذا الزخم المعرفي الخام، الذي لم يتمكن أحد من الوصول إليه، ولم شتاته، إلا يد هذا الصانع .

إن أستاذنا لا ينقل لنا هذا الإرث الحضاري المغربي، بحرفيته، بل يساهم في إعادة صياغته وتشكله. فهو بخلاف غيره من النقاد المغاربة، يمتح من ينابيع التراث المغربي الأصيل، ليصوغ من خلاله مفاهيم نقدية مستقاة من مخ تراثنا الخام، بعد صقلها وصياغتها من جديد في حلة جديدة وتلكم مبادرة لها الريادة في المثابرة، من أجل التغيير لغد أفضل .

فإذا كان للمشارقة إرث حضاري، قديم، فأستاذنا يكبد نفسه عناء البحث ليقتنص بدوره في خبايا تراثنا مايشفي غليل هذا المشروع .

وإذا استطاع الغرب تشييد مفاهيمه الخاصة به، فعميد الأدب المغربي، هو الآخر، استطاع تطويع مفاهيم تراثنا التقليدية، وفق قوالب حضارية جديدة. فكلما غصنا في دواليب تراثنا الشعبي على سبيل المثال إلا واستطعنا أن نستشف يد هذا العميد، الذي أماط لنا اللثام عن كنوز تراثنا الخالد .

إن أستاذنا د. عباس الجراري باختصار، عاشق للتراث المغربي. ثم إنه من جهة أخرى نراه يركز على التجربة الانسانية في تشابهاتها. وتعارضاتها. وهو بهذا مشروط في تفاعله مع الكتابات الابداعية المغربية بالحاجة إلى التراث الإنساني بعامة .

وعليه، فقد أفرز هذا المشروع بدائل نقدية مقنعة في تحقيق دلالة النص، كاستراتيجية نقدية بديلة في المحافل الأدبية النقدية المغربية. وهو بذلك يسعى إلى التخلص من بصمات التقليد والتأثر السهل، ليواجه أسئلة الكتابة والنقد، ومغامرة البحث والتجدد، خارج أروقة الخطابات المكررة .

والثقافة المغربية قد تقبل توظيف مفاهيم السنن وامتزاج الآفاق، لأن كل أثر أدبي فيها هو حوار مع آثار سابقة عليه، وهو جواب عن سؤال مطروح عليه، بكيفية صريحة أو ضمنية، مما يسمح بربط اللاحق بالسابق، ويكون تقليدا يسمح بإنتاج النص وتلقيه في آن واحد، كما أن امتزاج الآفاق هو ربط لحاضر المؤلف المتلقي، والمتلقي بماضيه .

إن هذا العمل إذن، يبتغي الوقوف على فكرة واحدة تتلخص في أن أستاذنا د عباس الجراري يجترح محاوره بذاته، وعملية الاجتراح هذه عملية معقدة، تتحكم فيها مجموعة من الإواليات والانشغالات النفسية والثقافية والاجتماعية والجمالية وغيرها، قصد فتح باب التحاور والتعامل مع مستجدات الأدب المغربي، ومحاولة استشراف مفاهيمه ومستنداته، وإبراز مؤدياته التواصلية والانتاجية، وذلك بالنظر إلى حركيته من زوايا مختلفة

3-اهتمامه بالمتلقي :

يتناول أستاذنا د. عباس الجراري، القضايا التي يناقشها أو يخضعها للدراسة، وفق نسق معرفي يخدم قناة التواصل التي تربطه بالمتلقي، عناية منه بهذا الأخير، على نحو قوله: «حتى يكون المتلقي قادرا على تقبلها والتجاوب معها. .. فتصرف المتلقي عن تقبلها كما تكون قد صرفت المنشئ عن استعادتها وتأملها. .. والحق أن التصوير يقتضي جانبا من الصنعة الشكلية يكون من شأنها أن تساعد على التعبير عن التجربة، وأن تغري المتلقي، وتثيره، وتجذبه ليتجاوب معها، ويشعر بما أثارته في نفس صاحبها، فهي عنده كائن عضوي حي ترتبط أطرافه وأجزاؤه بعلاقات تخلق – مجتمعة – تأثيرها في القارئ والسامع بما تثيره من إيحاءات مضغوطة في اتجاه موحد غير مشتت [6]

يروم أستاذنا د. عباس الجراري، من خلال هذا المعطى تيسير العسير، وتفكيك خيوط المتشابك، حرصا منه على صيانة أدبيات التلقي، وتفاديا لطرح جملة من القضايا والأفكار بدون توضيح وهذا النهج يسلكه في جميع كتاباته، رفقا منه على المتلقي، واهتماما منه به فنجده يولي اهتماما كبيرا، وعناية جادة، بتفصيل الأفكار، وعدها وتقسيمها إلى أقسام، وطرحها واضحة لا تكلف المتلقي عناء فك الألغاز والرموز، وإعادة الترتيب والتركيب ويزكي ذلك قوله: (إننا حينما نقرأ الشعر، أو حين نستمع إلى الشاعر – أي شاعر – فإننا نريد أن نتعامل مع الشعر نفسه، لأن الذي يهمنا هو هذا الشعر، وماعدا ذلك فهو تحليل واجتهاد وتفسير وتأويل ومحاولة لفتح آفاق الفهم أمام المتلقين)[7].. فنجده يشبه استعان الشاعر بالخيال على أنه «كما لو كان يستعين بمجهز لتكسير صور المرئيات، وسبر أغوارها في صفاء ووضوح حيث تعجز العين المجردة عن ذلك أو تلتقطه في تشويش واضطراب[8].

فالدقة في تبسيط المفاهيم، ومحاولة تقريبها إلى ذهن المتلقي، جعل عميد

الأدب المغربي يتوسل بأسلوب التمثيل، إيمانا منه بدوره الفعال في خدمة المتلقي باعتباره أنجع مطلبا وأقرب مفهما؛ وبالتالي إسهامه في صوغ الصورة في قالب فني جذاب، مستقى من صميم الواقع، كوسيلة إقناعية للمتلقي، تفصح عن مدى قدرة أستاذنا على تطويع اللغة رسمية كانت أو عامية؛ مما يستأثر بإعجاب متلقي رسالاته الفنية، نظرا لفصاحة لغته وجزالة مبناها وروعة أدائها، وجمال أسلوبها.

4-فعالية التجربة «الجرارية»:

إن ما حققه أستاذنا. د. عباس الجراري على مستوى الممارسة النقدية من تراكم، لكفيل بأن يحثنا على إخضاع تلك الممارسة لنوع من التفكير والتحليل، للتمكن من تفسيرها وفهم مقوماتها ضمن سياقها العام، الذي يتحكم في صياغة ملامح إنجازها، بالنظر إلى خريطة النقد الأدبي المغربي. وليس بالإمكان إنجاز ذلك، إلا بطرح أسئلة جوهرية تمكن من إيصال البحث إلى هدفه المنشود .

فماهي استراتيجيات الخطاب النقدي (الجراري»، وفق التصنيف الذي أفصحت

عنه أعماله؟ وماهي الخلفيات المرجعية لهذا الخطاب؟

إن المتتبع لمسار التجربة النقدية (الجرارية»، سيلاحظ لا محالة اهتمامه بالمنظومة المفاهيمية والإجرائية – التي حاول استخلاصها من عمق أصالة الخطاب النقدي المغربي – والعمل على بلورتها، وفق خصائص ومقومات الظاهرة الأدبية لاكتشاف أبعادها وتحديد ميكانيزماتها. مستهدفا تأصيل خطاب قادر على تمثل واستيعاب كل الإشكاليات التي يطرحها النقد أثناء تشغيله لأدواته الإجرائية .

وقد قدمت لنا التجربة (الجرارية دراسات علمية رصينة حول تاريخ المغرب السياسي والثقافي، وأبحاثا جامعية في الآداب الشعبية، وفي الآداب العربية الفصيحة، وعملت على إبراز خصائص الثقافة المغربية ومميزاتها وأدوارها، في إطار السياق الحضاري والثقافي المغربي، ضمن البعد العربي.

ومع هذا الباحث لم يعد التفكير يقتصر على التأريخ للأدب المغربي بل أضحى تفكيرا في هذا الأدب ذاته، وقراءته قراءة فاحصة من خلال ظواهره وقضاياه وأسئلته الكبرى مما يدل على أن هذا الأدب يعد إشكالا معرفيا مفتوحا، يفرض القراءة وإعادة القراءة، لكشف لآليئه، وبالتالي بناء معرفة موضوعية. وهي المهمة الفكرية الجلى، التي كرس أستاذنا نفسه وجهده، ووقته، للقيام بها على أكمل وجه منذ أكثر من ثلاثة عقود، إلى أن أصبح اسمه يعادل في الأذهان الأدب المغربي فكلاهما معنى مصاحب للثاني حسب تعبير اللسانيين.

وتجربته النقدية تؤكد على متانة مونات ثقافته الموسوعية، واتساع معارفه وعمق تحليله، ومناقشته، وتفتح شخصيته، مما جعلها نموذجا يحتذى به في النقد الأدبي الحديث.

ووعيه بالنقد الهادف، يعكس مدى ثقافته التي تترجمها الحلول والتأويلات، أو الاجتهادات التي قدمها في معالجته لقضايا الخطاب الأدبي المغربي على وجه العموم، والتي تسعى إلى تأصيل خطاب مغربي قادر على تمثيل واستيعاب كل الإشكالات التي يطرحها النقد أثناء تشغيله لأدواته الإجرائية، مع مراعاة الالتزام بالمنطق النظري الأصلي.

وتلك مهارة تستلزم الارتكاز على البنيات اللغوية والجمالية للنص، من أجل استلال المؤشرات النصية، وهذا يكشف عن حنكة أستاذنا وخصوصياته المميزة في تجاوز الأحكام الجاهزة التي تعصف بإبداعية الأثر الفني.

ومن تم يمكن القول إن أطروحة التجربة الجرارية، تنبني على شبكة من المفاهيم والأدوات المنهجية الكفيلة بوضع المعرفة والآليات والتصورات في قالب علمي، أساسه استقراء وتحليل الخطاب النقدي، في أفق بناء تصور إجرائي قمين بأن يضفي طابع المواءمة والتماسك على الخطاب النقدي.

خاتمة

إن الهم المعرفي الذي يؤسس لهذا المشروع إذن، ويعمل على إضاءته يتلخص في كون الإنتاج النقدي المغربي برهن على تحولات إيجابية، قوامها الاتجاه نحو تكريس خصوصية الخطاب النقدي المغربي وفق التناول الموضوعي والعلمي، وفي أفق بلورة وجهة نظر نقدية للذات وللعلن.

فنحن أمام خطاب نقدي له من المشروعية والإجرائية ما يجعله فاعلا وكفيلا بتجسيد الدور المنوط به في قراءة وتحليل وتأويل الأثر الفني ضمن مشروع محدد محكوم بتصور ضالع بمسؤولية قراءة وتأسيس الخطاب النقدي المغربي، من خلال إشكالاتها المحورية، وبالتالي مختلف تمفصلاتها الداخلية.

الهوامش:

[1] – نقد الشعر: ص. 43 عبد الجليل ناظم.

[2] – عبد الله كنون: أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، دار الثقافة الدار البيضاء 1978. نقلا عن (الشعر المغربي مقاربة تاريخية، محمد أديب السلاوي، ص. 111.

[3] –) في سنة 1939، نشر عبد الله كنون كتابه (النبوغ المغربي في الأدب العربي، وكان حدثا خطيرا في تاريخ المغرب، كما جاء على لسان سعيد حجي وهو الكتاب الذي استطاع أن يلم شقوق الذاكرة المغربية التي تشتت في تجاويف التاريخ وأتون الكتب المختلفة الاتجاهات، بالإضافة إلى اعتباره أول كتاب مغربي في تاريخ الأدب المغربي. ومن المقاصد التي يصبوا إليها: الدفاع عن الهوية الثقافية والوطنية للمغرب في مواجهة الاحتلال الاجنبي، ومراميه الساعية إلى طمس معالم الهوية ولذلك صادرت السلطات الفرنسية المحتلة الكتاب ومنعت تداوله

[4]– النبوغ المغربي في الأدب العربي: المقدمة .

[5]– محمد عابد الجابري: إشكاليات الفكر العربي المعاصر: العرب والغرب على عتبة العصر التكنولوجي. ص. 105 .

[6]– فنية التعبير في شعر ابن زيدون: ص 59

[7] – مع المعاصرين: ص 40

[8] فنية التعبير: ص 60 .